"متى تخلى الإنسان عن حريته"

ولد الإنسان حراً، وتمتع بهذه الحرية منذ بدايات خلق البشرية الأولى، وعاش الحرية في سفوح الجبال الشاهقة وداخل الكهوف الصـــخرية، وتمتع بالحرية حينما عاش بداياته الأولى متنقلاً بحرية بين شِـــعَب الجبال والقمم الشـــاهقة، وحينما اعتمد على الصيد والتقاط الثمار لتوفير متطلبات استمراره، وحينها وصفت حياته بالبسيطة والبدائية الغير مرتبطة بوشائج اجتماعية ومنتجات اقتصادية وأنماط حكم ومفردات سياسية.

وأيقن الإنسان منذ البدايات الأولى أهمية حاجته إلى مقومات الاستمرار على قيد الحياة، ودفعته للبحث عن الاجتماع البشري سعياً وراء الأمن والاستئناس، ودفعته غريزته الطبيعية نحو النزول من أعالي الجبال نحو السهول، وانعكس هذا السلوك المستجد على نمط معيشته وحياته العامة، حينما ترك سفوح الجبال وهبط إلى قيعان الأودية والسهول تغيرت احتياجاته، وغير من أنماط سكناه ومعيشته، وترك التقاط الثمار وبدأ بزراعتها وانتظار موسم الحصاد، مما أسهم في التوجه نحو الاستقرار وبناء البيوت الصغيرة من الطين أو الطين والحجارة، وتربية الحيوانات وتدجينها.

وبدأت الفكرة تروق للإنسان البدائي، وبدأت رحلته تسير نحو تلبية غرائزه وتطوير أدواته، وبدأت عجلة الحياة تدور، وبدأ التاريخ البشـــري بالتبلور حينما تضـــاعف بناء البيوت الطينية البدائية حول بعضـــها البعض لتشـــكل أوائل التجمعات البشرية منذ القِدَم، وهنا بدأ الإنسان يتخلى عن بعض حريته شيئاً فشيئاً على حين غفلة مستكيناً لمتطلبات حياته العامة ومعيقات البيئة.

واستمر مسلسل التنازلات حينما خرج من بين أفراد تلك المجتمعات البدائية زعيم صغير ليمثلهم ويتدبر أمورهم، ويفصل بينهم في الخصومات، ويضع الحدود، وتصَدَرَ المشهد تحت شعار الحاجة إلى زعيم أو قائد، واستمر في لعب هذا الدور بدون وجود مبادئ ولوائح يحتكم لها، وتعاظمت ســـلطته وتفاقمت أدواره، وتحول إلى نمرود أو متغطرس، يبطش بمن يشاء، ويختلس أموال من يشاء، ويستبد بمن يشاء، وصنع لنفسه تلك الهالة بتدرج مستغل انشغال

العوام وحاجتهم لشخص يدير شؤونهم العامة، واعتقد في ساعة غفلة أو لحظة انبهار بأنه نصف إله أو سليل الآلهة أو إله، وأبسطهم قال: "أنا ممثل الإله وظله على الأرض"، معتقداً بأنه يتمتع بمميزات خارقة لا توجد لدى باقي البشر.

وا ستغل هذا المخلوق الـ ضعيف دوره الاجتماعي الاعتيادي الذي كُلف به أو أنيط به داخل مجتمعه البدائي الب سيط ليد شن لنف سه منظومة من الطغيان، وتو سع ليؤ سس لنف سه أعوان، ومن أعوانه من تمنطق برداء رجال المعبد وكهنته، وتصدروا مشهد تدعيم هذا الطاغية، وتجاهل رجال الدين بأن الدور المنوط بهم هو تدعيم سعادة البسطاء "عوام الناس"، وإرشادهم إلى خالق الكون، لا تخديرهم بفتاوى سلطانية، وعلى حين غفلة دشن الطاغية أجهزة أمنية وتنفيذية، تحت شعار ب سط الأمن والا ستقرار، وا ستغلها لتعزيز وتدعيم وجوده على كر سي الت سلط لا لأن تتو سع وتبتكر الخدمات وو سائل الرفاهية لجموع الـ شعب وب سطاء الأحياء القديمة في مملكته الظلامية، بل ا ستُغِلَت تلك المؤسسات والأجهزة لفرض المزيد من الضرائب والقهر والقمع، لترهب بها البسطاء وتفرض عليهم ما يثقل كاهلهم، ونسج من حوله طوائف ومنظومات تعتاش كالبق على ظهور البهايم، نعم استحمر شعبه فأطاعوه.

وحينما ا ستفحل م شهد الطغيان، وانت شرت غالبية سلوكيات ومظاهر الظلم، غ ضب خالق هذا الكون وم سيره "تبارك في عُلاه"، وكانت غ ضبة تجاه تلك الـ صنوف من الطغاة، وكانت غ ضبة لتمنح البسطاء ممن تعايشوا مع الظلم بريقاً من الأمل، لتمنحهم بذور الحرية، ولتحرك فطرتهم نحو الحرية التي تمتعوا بها منذ البدايات الأولى لخلق البشـــرية، ولم يحسنوا الحفاظ عليها، وضاعت من أيديهم على حين غرة.

وحينما هبط الإنسان البدائي من سفوح الجبال ليستأنس بغيره من البشر في السهول والواحات الخصبة كان مبتغاه الأمن والغذاء والاســـتقرار والإعمار، وبعد مرور الوقت بدأ يفتقد لكل ما طمع به، وبدأت حياته تميل إلى الشـــقاء والتعاســـة، وداخل البيئات الجديدة قدر اللَّه لهذه المجتمعات نمو بذور جديدة داخل أصـــلاب الرجال، وتنحو نحو الإصلاح، وتكشفت تلك المجتمعات عن تناقضات داخلها، وتعدد لم يخطُر ببال الإنسان البدائي في سنواته الأولى التي عا شها داخل هذه المتجمعات الوليدة، وحينما نبت توجه جديد قاده بعض أ صحاب النخوة والمروءة والا صلاح، وت صدر هذا المشـــهد من عرف عنهم النقاء والزهد أو المرجلة والكاريزما، وبدأت تزدهر الدعوات الرافضـــة للظلم والمطالبة بالحرية والعدالة والكرامة والتنمية، وكلما ارتفع صـــوت هذه الفئة زاد القمع والتنكيل تجاه الشـــعب، والتهم جاهزة، والتخوين جاهز، واتهم الطاغية وأعوانه تلك الفئات بالإرهاب، وقالوا بأنها تحمل أجندات خارجية وهدفها تخريب

المجتمعات البـ ـشرية، وقال عنها الكهان و سدنة المعبد بأنها مجموعات من الزنادقه، وهذا ما قالوه واتهموا به زكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهم...، وهذا هو مبرر مجمل الطغاة على مر العصور.

وحينما ا ستفحل الظلم والقتل والتشريد والحرمان بعث اللَّه بالر سل والأنبياء والمصلحين، وبدأت عجلة التاريخ تدور مجدداً، وتتوقف في بعض الأحيان وتعاود الكرة مجدداً، وكلما زادت المطالب الشعبية زاد غضب الطاغية وأعوانه، وزاد القمع والبطش، وفي خضم هذا المشهد تطورت الأدوات والوسائل البشرية، وأوجدت الحضارة البشرية اتجاهات جديدة تُحَرِكُها الحروب والصراعات على السلطة والموارد، وهنا بدأ يُكتب التاريخ، وبدأت تدون حركة الإنسان، وبدأ الإنسان في خ ضم هذه المتغيرات والـ صراعات يتحـ سس حريته المـ سلوبة، ويـ ستـ شعر الحنين للفطرة، وهنا ظهرت الحركات الإنســـانية التي تمجد قيمة الإنســـان وتهتم بالعقل وتولي أهمية نحو التفكير وإعمال الفِكر ونحو تلبية احتياجات الإنسان، وبدأ يتحسس الإنسان حاجتهُ إلى عِقد اجتماعي يربطه بالحاكم وتسير وفقه الرعية ومؤسسات المجتمعات البشرية، ويبين الحقوق والواجبات، ويحدد الآليات والوسائل التي تمنع وتحد من ظهور الطغاة.